الفصل السادس

الفتح والإمالة

الفصل السادس
الفتح والإمالة

الإمالة ضرب من ضروب التأثير الذى تتعرض له الأصوات حين تتجاور، أو تتقارب، وهى والفتح صائتان، وقد يكونان طويلين أو قصيرين[1].

مفهوم الإمالة فى اللغة:

يذكر ابن فارس أن «الميم والياء واللام» كلمة صحيحة تدل على انحراف فى الشىء إلى جانب منه، مال يميل ميلا، والمَيْلاء من الرمل: عَقْدة ضخمة تعتزل وتميل ناحية، والميلاء: الشجرة الكثيرة الفروع..... والأَمْيَل من الرجال، يقال إنه الذى لا يثبت على الفرس، وإن كان كذا، فلأنه يميل عن سَرْجه...[2] وتأتى الإمالة بمعنى ميول الشمس: مالت الشمس ميولا: ضَيَفَت للغروب، أو زالت عن كبد السماء....[3] والإمالة مصدر أملته إمالة، والميل: الانحراف عن القصد، يقال منه مال الشىء ومنه مال الحاكم إذا عدل عن الاستواء»[4].

مفهوم الإمالة عند النحويين:

لقد أشار إمام العربية سيبويه إلى ظاهرة الإمالة فى مؤلفه الكتاب قائلا: «الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك: عابد،

---

(١) د. عبده الراجحى. اللهجات العربية، ص ١٣٤.

(٢) ابن فارس. مقاييس اللغة. مادة «ميل»، ج٥. ص ٢٩٠.

(٣) القاموس المحيط. مادة «ميل»، ج ٤، ص ٥٣.

(٤) شرح المفصل، ج ٩، ص ٥٣، وما بعدها.

وعالم، ومساجد، ومفاتيح.... وإنما أمالوها للكسرة، التى بعدها، أرادوا أن يقربوها منها»[1].

وقد عَدَّ أستاذنا الدكتور هلال ألف الإمالة من الحروف المستحسنة وهى التى تجدها بين الألف والياء نحو قولهم فى عالم وخاتم: عالم وخاتم[2]. والإمالة أن تُنْحِى جوازا بالألف نحو الياء لضرب من تجانس الصوت[3] فهى إذاً عدول بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخمة وبين مخرج الياء[4].

ونفهم مما سبق أن الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وهذا يكون من أجل التناسب بين الحركات بتقريب بعضها من بعض، حتى لا يكون الانتقال من حركة إلى تاليها صعبا فيثقل.

الغرض من الإمالة:

إن غرض الإمالة هو «أن تُنْحِى بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء، حتى يزول الاستثقال، لأننا حين النطق بالفتح يكاد يكون اللسان مستويا فى قاع الفم، فإذا أخذ فى الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ بذلك الوضع الذى يسمى بالإمالة، فلا فرق إذن بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة، إلا فى اختلاف وضع اللسان مع كل منهما حين النطق بألف المد وياء المد»[5].

---

(١) الكتاب، ج ٤، ص ١١٧ .

(٢) عبقرى اللغويين: ج٢، ص ٥٣١ .

(٣) همع الهوامع، ج٢، ص ٢٠٠، وابن جنى، اللمع فى العربية. ص ٣١١ .

(٤) شرح المفصل، ج ٩، ص ٥٤ .

(٥) فى اللهجات العربية ص ٦٤ وما بعدها.

فأغراضهما إذا أحد أمرين: أولهما تناسب الأصوات وتقاربها، وبيان ذلك أن النطق بالياء والكسرة مستفل منحدر، والنطق بالفتحة والألف مستفل منصعد، وبالإمالة نصير الألف من نمط الياء في الانحدار والتسفل، وثانيهما التسهيل على أصل أو غيره[1] وفائدتها: سهولة نطق اللفظ، وذلك لأن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع[2].

وها هو ذا عبقري العربية ابن جني يعد الإمالة فرعا من الإدغام، ويسميها الإدغام الأصغر، يقول: و«أما الإدغام الأصغر فهو تقريب الحرف من الحرف وادناؤه منه من غير إدغام يكون هناك، فمن ذلك الإمالة، وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت، وذلك نحو: عالم وكتاب، وسعى وقضى... ألا تراك قربت فتحة العين من عالم إلى كسرة اللام منه، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الألف نحو الياء، وكذلك سعى وقضى، نحوت بالألف نحو الياء التي انقلبت عنها[3].

وأما حكم الإمالة فهو الجواز، فكل ممال يجوز فتحه، وأما محلها فهو غالبا في الأسماء المتمكنة، والأفعال، وقليلا في بعض الحروف.

وأما عن لهجات القبائل في الفتح والإمالة فيكاد علماؤنا القدامى يتفقون على أن الفتح لهجة أهل الحجاز، وأن الإمالة لهجة عامة أهل

---

(١) همع الهوامع، ج٢، ص ٢٠٠، وحاشية الصبان ج٤، ص ٢٢٠ وما بعدها، وشرح المفصل، ج ٩، ص ٥٨ وما بعدها، والأصول في النحو، ج ٣، ص ١٦٠.

(٢) د. إبراهيم الإذكاوي، قراءات قرآنية وتوجيهها من كلام العرب، ص ١٦٦.

(٣) الخصائص، ج ٢، ص ١٤١ - ١٤٣ وقارن بما ورد في سر الصناعة، ج١، ص ٥٩.

نجد من تميم وأسد وقيس[1]

غير أن تفصيل هذه المسألة يثبت أن بعض أهل الحجاز كانوا يميلون، ومن أدلة ذلك قول أبي عمرو، إذ الإمالة في «الناس» في موضع الخفض لغة أهل الحجاز[2]

بيد أن بعضا من القبائل الحجازية كانت تميل ما هو مفتوح، ومن المتوقع أن تكون قبائل الحجاز وصلت إلى المرحلة الرابعة من مراحل التطور وهي الفتح، ولكن مرت عليه فترة من الفترات كانت عند المرحلة الثانية وهي الإمالة، ولما انتقلت إلى المرحلة الرابعه وهي الفتح، وشاعت هذه المرحلة عند قبائل الحجاز، بقيت قلة قليلة تنطق بالإمالة، وهذا ما يسمى بالركام اللغوى، ومعناه أن الظاهرة اللغوية حينما تموت، لا تموت تماما، بل تبقى بقايا تدل عليها تتصارع مع الزمن، ومن أمثلة ذلك لغة أكلونى البراغيث، وكسر أحرف المضارع، وغير ذلك ...

وهذا سؤال نود أن نطرحه، وهو: هل تميم وأسد وقيس يعرفون الفتح؟ للإجابة على هذا السؤال نقول: إن بعضا من تميم وأسد وقيس عرف الفتح، ومما يؤيد هذا قول إمام العربية سيبويه: والإمالة فى الفعل لا تنكسر إذا قلت: غزا وصفا ودعا[3] ثم يقول: «وجميع هذا لا يميله ناس كثير من بنى تميم وغيرهم»[4].

---

(١) شرح المفصل: ج٩، ص ٥٤، والنشر: ج٢، ص ٣٠، والكتاب: ج٢، ص ٢٦١، وشرح شافية ابن الحاجب: ج٣، ص ٤، واللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ص ١٣٩.

(٢) أثر القراءات فى النحو والأصوات: ص ١٧٥.

(٣) الكتاب: ج ٤، ص ١١٩

(٤) المصدر السابق: ج ٤، ص ١٢٠.

ونستخلص مما سبق أن بعضا من تميم وأسد وقيس عرف الفتح، وإن كان أكثرهم يلجأ إلى الإمالة، والعلة فى ذلك طلب الخفة وتحقيق التناسب الصوتى بين الأصوات.

وبناء على ما سبق، فإن الإمالة لم تكن مقصورة على تلك القبائل التى أشار إليها الأقدمون فى كتبهم، وإنما كانت ظاهرة أكثر شيوعا مما ذكروه، فقد كانت معظم القبائل العربية، وإن تفاوتت قلة وكثرة، فهى إذن صفة كثيرة الشيوع جدا عن العرب فى نطقهم(١).

أسباب الإمالة:

ذكر النحاة عدة أسباب للإمالة، كلها ترجع إلى قسمين، أولهما لفظى وهو الياء والكسرة، وثانيهما معنوى يدل على ياء أو كسرة، وهذه الأسباب، أجملها أستاذنا الدكتور عبده الراجحى فى النقاط الآتية(٢):

١ - كسرة متقدمة، ولابد أن يفصل بين الكسرة المتقدمة والألف فاصل، وأقله حرف واحد مفتوح نحو كتاب وحساب، وأما الفتحة الممالة فلا فاصل بينهما وبين الكسرة.

٢ - ياء متقدمة نحو أياما، الحياة، شيبان.

٣ - كسرة متأخرة نحو عابد، من الناس، فى النار.

٤ - ياء متأخرة نحو مُبَايع.

٥ - ياء مقدرة فى المحل الممال نحو يخشى، أتى.

---

(١) د. عبد الفتاح شلبى، الإمالة فى القراءات واللهجات، ص ٩٥، ط ٢، ١٩٧١م.

(٢) د. أنيس، اللهجات العربية، ص ١٣٦، نقلا عن ابن الجزرى، النشر ج٢، ص ٣٢، وقارن بما ورد فى اللمع فى العربية، من ص ٣١١ : ٣١٨، ود. هلال، اللهجات العربية: ص ١٩٨ وما بعدها.

٦ - كسرة مقدرة فى المحل الممال نحو خاف أصله «خَوِفَ».

٧ - كسرة تعرض فى بعض أحوال الكلمة نحو «طَلَبَ - جَاءَ - زَادَ» لأن الفاء تكسر من ذلك إذا اتصل بها الضمير المرفوع من المتكلم والمخاطب ونون جماعة الإناث.

٨ - إمالة لأجل إمالة نحو «رأيت عمادا» فأمالوا الألف المبدلة من التنوين لأجل إمالة الألف الأولى لأجل الكسرة.

٩ - إمالة لأجل الشبه نحو «الحسنى» قالوا إنهم أمالوا ألفها لشبهها بألف «الهدى».

١٠ - إمالة لأجل كثرة الاستعمال نحو «الناس».

أما أنواع الإمالة فهى ثلاثة:

١ - إمالة الفتحة قبل الألف إلى الكسرة، فيميل الألف نحو الياء.

٢ - إمالة الفتحة والراء إليها نحو أكبر.

٣ - إمالة الفتحة قبل الهاء إلى الكسرة كما فى رَحْمِه.

ظاهرة الفتح والإمالة عند ابن قتيبة:

تحدث ابن قتيبة عن الفتح والإمالة فى مصنفه «أدب الكاتب» من خلال عرضه لنماذج قليلة منه، من ذلك قوله «تكتب الهدى والهوى - هوى النفس - والمَدَى الغاية بالياء لأنك تقول فى تثنيته: هديان، وهويان، ومديان، فإن أشكل عليك من هذا الباب حرف، ولم تعرف أصله ولا تثنيته، فرأيت الإمالة فيه أحسن فاكتبه بالياء، وإن لم تحسن فيه الإمالة، فاكتبه بالألف حتى تعلم[1].

(١) أدب الكاتب: ص ٢٠٤.

وهنا نلاحظ أن ابن قتيبة أجاز الفتح والإمالة فى الكلمات «الهدى، الهوى، المدى» قائلا: «إن لم تحسن فيه الإمالة، فاكتبه بالألف حتى تعلم»(١).

ويمكننا تفسير الإمالة عند من يحسنها فى هذه النماذج، بأننا نحونا بالألف نحو الياء، وبالفتحة نحو الكسرة، حيث أثرت الفتحة على الدال بالكسرة تأثرا مقبلا فى حالة اتصال، فنطقنا «الهدى، الهوى»: المدى» وهذا من أجل تحقيق التقارب والانسجام والتناسب الصوتى بين الأصوات حتى لا تختلف فتتنافر.

وبيان ذلك أنك إذا قلت «عابد» كان لفظك بالفتحة والألف تصعدا واستعلاء، وبالكسرة انحدار وتسفلا، فيكون فى الصوت بعض اختلاف، فإذا أملت الألف قَرُبَتْ من الباء، وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة، فتقاربت الكسرة الواقعة بعد الألف، وتصير الأصوات من نمط واحد، وهذا نظير اشمامهم الصاد زايا فى نحو «يصدر» للتناسب، لأن الصاد مهموس، والدال مجهور، فبينهما نقرة، والزاى تشاكل الصاد فى الصفير، والدال فى الجهر، فإذا أشربوا الصاد زايا حصل تناسب الأصوات(٢).

غير أن الفتح هو الأصل - إذا كنا لا نحسن الإمالة على حد قول ابن قتيبة - بدليل أن الإمالة لا تكون إلا عند وجود سبب من الأسباب، فإن فقد سبب منها لزم الفتح، وإن وجد شىء منها، جاز الفتح والإمالة(٣) فكل

---

(١) أدب الكاتب: ص ٢٠٤.

(٢) الاشمونى، شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك، المسمى (منهج السالك): ج٤، ص ٢٢٠، والزمخشرى، المفصل، ج٩، ص ٥٥، والخصائص، ج٢، ص ١٤٦.

(٣) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ص ١٣٦.

ألف منقلبة عن ياء جاز إمالتها[١].

ومما يؤيد أن الإمالة هنا جائزة، أن القراء اختلفوا فى قراءة كلمة «الهدى» وما أشبهها، فالكسائى وأبو عمرو يُميلان، وابن كثير وابن عامر يفتحان[٢].

إمالة بعض الحروف عند ابن قتيبة:

إن الحروف لا تمال لأنها غير متصرفة، ولا تثنى ولا تجمع، يقول ابن يعيش: «والقياس يأبى الإمالة فى الحروف، لأن الحروف أدوات جوامد غير متصرفة، ولا تلحقها تثنية ولا جمع ولا تغيير، فلا تصير ألفاتها ياءات»[٣] كما أن الإمالة من خواص الأفعال والأسماء المتمكنة، ولا تطرد إمالة غير المتمكن[٤].

بيد أنهم أمالوا بعض الحروف، ونبهوا على أن أمالتها أحسن وأفصح من التفخيم، يقول ابن قتيبة: «تكتب، بلى، ومتى، أنَّى» بالياء، لأن الإمالة فيها أحسن وأفصح من التفخيم[٥].

إمالة «بلى»: نص ابن قتيبة على إمالة «بلى» قائلا: تكتب «بلى» بالياء، لأن الإمالة فيها أحسن وأفصح من التفخيم[٦] ولقد ذهب العلماء

---

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ص ١٣٦ .

(٢) شرح المفصل: ج٩، ص ٩٥، واللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ص ١٣٨ وما بعدها.

(٣) شرح المفصل: ج ٩، ص ٩٥ .

(٤) حاشية الصبان : ج٤، ص ٢٣٢ .

(٥) أدب الكاتب: ص ٢٠٦ .

(٦) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

إلى إمالة «بلى» على أساس أنها على ثلاثة أحرف، فهى كالأسماء، كما أنها تشبه الفعل وتتضمن معنى الجملة، يقول الصبان: «وقد أميل من الحروف «بلى» لأنها نابت عن الجمل، فصار لها بذلك مزيّة عن غيرها[1] وقال ابن يعيش: «وإمالة بلى أقيس من إمالة لا، لأنها مع ذلك على ثلاث أحرف كالأسماء[2] وإنما أميل «بلى» لجواز السكوت عليها وتضمنها معنى الجملة، إذ تقول فى جواب من قال «أما قام زيد، بلى» أى: بلى قام، فصار كالفعل المضمر فاعله نحو غزا ورمى فى الاستعلاء، فأميل لمشابهته الفعل[3].

ونفهم مما سبق أنهم أمالوا «بلى» لمشابهتها الاسم، ولتضمنها معنى الجملة، وعلى هذا فإن «بلى» كما يقول ابن قتيبة، تكتب بالياء، لأن الإمالة فيها أحسن، وأفصح من التفخيم.

إمالة «متى» و«أنى»:

يقول ابن قتيبة تكتب «متى» و«أنى» بالياء، لأن الإمالة فيها أحسن وأفصح من التفخيم[4].

والسبب فى إمالتهما، أنهما ظرفان مستقلان بأنفسهما، ولإغنائهما عن الجملة، يقول إمام العربية سيبويه: «يميلون فى (أنّى) لأن أنّى تكون مثل أيْن، كَخَلْفَكَ، وإنما هو اسم صار ظرفاً، فقرب من عطشى»[5].

---

(١) حاشية الصبان، ج٤، ص ٢٣٢.
(٢) شرح المفصل، ج٩، ص ٦٦.
(٣) شرح شافية ابن الحاجب، ج٣، ص ٢٦ وما بعدها.
(٤) أدب الكاتب، ص ٢٠٦.
(٥) الكتاب، ج ٤، ص ١٣٥.

ويقول ابن يعيش : «متى وأنى» مستقلان بأنفسهما غير محتاجة إلى ما يوضحها، كاحتياج إذا وما، فقربت من المعرفة فأُميلت لذلك[1].

ويذهب شارح شافية ابن الحاجب إلى أنهما يُمالان فى الاستفهام لحذف الفعل بعدهما، يقول: «وتُمال» أَنَّى ومتى - وإن لم يسم بهما - لإغنائهما عن الجملة، وذلك لأنك تحذف معهما الفعل، كما تقول: متى؟ لمن قال سار القوم[2] وكذلك قول الكميت بن زيد الأسدى[3]:

* أنَّى ومِنْ أَيْن آتَكَ الطربُ *

وهنا نلاحظ أن (أنَّى) فى هذا البيت، قد يستغنى بها عن الجملة، فيكون التقدير «أنى آتاك الطرب» فحذف الفعل من الأول لدلالة الثانى عليه.

وخلاصة ما سبق أن إمالة «متى» و«أنَّى» أحسن وأفصح من التفخيم، على نحو ما ذهب إليه ابن قتيبة، وذلك لأنهما ظرفان مستقلان بأنفسهما، ويستغنى بهما عن الجملة.

إمالة «عسى»:

يقول ابن قتيبة تكتب «عسى» بالياء، لأنك تقول عَسَيْتُ أن أفعل

---

(١) شرح المفصل: ج ٩، ص ٦٦ .

(٢) شرح شافية ابن الحاجب : ج٣، ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) ورد هذا البيت فى شرح شافية ابن الحاجب: ج٣، ص ٢٧، وعجزه :
* من حيث لا صبوة ولا ريب * وقيل: فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: فى مدح على بن أبى طالب، ومعناه: كيف طربت مع كبر سنك ومع عدم وجود داعى للطرب.

ذلك، قال الله عز وجل ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾[1] قرئت بفتح السين وكسرها[2].

وقد نص ابن يعيش على إمالة «عسى» وذهب إلى ما ذهب إليه ابن قتيبة قائلا: «وأما عسى فإمالتها جيدة، لأنها فعْل، وألفها منقلبة عن ياء كقولك «عَسَيْتُ، وعَسَيْنَا»[3] ودليله قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[4]، وكقول الشاعر[5]:

أكثرتُ في العذل مُلحًا دائمًا ∴ لا تكثرن إنّي عَسَيْتُ صائمًا

والتفسير الصوتي لإمالة «عسى» أنها فعل متصرف، تنقلب ألفه ياء، فتقول: «عسيت وعسينا» ومما يعضد هذا الكلام ويقويه قول شارح شافية ابن الحاجب «وأميل عسى» إنما ذكر ذلك، وإن كان فعلا لئلا يظن به أن عدم تصرفه ألحقه بالأسماء غير المتمكنة في عدم جواز الإمالة، فقال: الفعل وإن كان غير متصرف فتصرفه أقوى من تصرف الاسم غير المتمكن والحرف، لأنه ينقلب ألفه ياء أو واوا إذا كان يائيا أو واويا عند لحوق الضمائر بها[6].

---

(١) سورة محمد: الآية: ٢٢.
(٢) أدب الكاتب: ص ٢٠٦.
(٣) شرح المفصل: ج ٩، ص ٦٦.
(٤) سورة محمد: الآية: ٢٢.
(٥) ورد هذا البيت في شرح المفصل: ج ٩، ص ٦٦، ولم ينسب إلى أحد.
(٦) شرح شافية ابن الحاجب: ج ٣، ص ٢٨.